

فصل في

حاجة الناس إلى الرسل

« إنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ، ولا يُنال رضى الله البتة إلا على أيديهم ، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به ، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال ، وبمتابعتهم يميز أهل الهدى من أهل الضلال .

فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها . فأي ضرورة وحاجة فُرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير ، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في القلابة ، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال ، بل أعظم ، ولكن لا يُحسُّ بهذا إلا قلبٌ حي وما لجرحٍ يميتُ إيلامٌ » (١) .

« فالرسالة ضرورة للعباد ، لا بدُّ منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ .

والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليها شمس الرسالة ، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها ، فهو في ظلمة وهو من الأموات قال تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، فهذا وصف المؤمن ؛ كان ميتاً في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان ، وجعل له نور الإيمان ، وجعل له نوراً يمشي به بين الناس ، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات .

وسمى الله تعالى رسالته روحاً ، والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة قال تعالى :

(١) زاد المعاد للعلامة ابن القيم - رحمه الله - (١ / ٦٩) .

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) [الشورى: ٥١] ، فذكر هنا الأصلين وهما: الروح والنور، فالروح: الحياة ، والنور: النور.

والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده ، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا بإتباع الرسالة ، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا بإتباع الرسالة ، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع ، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه ، وحركة يدفع بها ما يضره .

والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره ، والشرع نور الله في أرضه ، وعدله بين عباده ، وحصنه الذي من دخله كان آمناً .

ولا بقاء لأهل الأرض إلا ما دامت آثار الرسل موجودة فيهم ، فإذا دُرست آثار الرسل من الأرض وانمحت بالكلية خرب الله العالم العلوي والسفلي وأقام القيامة .

وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسل كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر ، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته ، ولا كحاجة العين إلى ضوئها والجسم إلى الطعام والشراب ، بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يُقدَّر ويخطر بالبال ، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده ، وكان خاتمهم وسيدهم وأكرمهم على ربّه: محمد بن عبد الله ﷺ يقول: « يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة » ، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) [الأنبياء: ١٠٧] ، وقال - صلوات الله عليه وسلامه - : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » .

وهذا المقت كان لعدم هدايتهم بالرسل، فرفع الله عنهم هذا المقت برسول الله ﷺ ، فبعثه رحمة للعالمين ، ومحجّةً للسالكين ، وحجّةً على الخلائق أجمعين ، وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيه وتوقيره، والقيام بأداء حقوقه ، وسدّ إليه جميع الطرق ، فلم يفتح لأحد إلا من طريقه ، وأخذ العهود والمواثيق على جميع الأنبياء

والمرسلين ، وأمرهم أن يأخذوها على من اتبعهم من المؤمنين .

أرسله الله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فختم به الرسالة ، وهدى به من الضلالة ، وعلم به من الجهالة ، وفتح برسالته أعيناً عمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلْفاً ، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها ، وتألّفت بها القلوب بعد شتاتها ، فأقام به الملة العوجاء وأوضح بها المحجة البيضاء ، وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ورفع له ذكره ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره ، أرسله على حين فترة من الرسل ودروس من الكتب ، حين حُرّف الكلم وبدلت الشرائع واستند كل قوم إلى أظلم آرائهم وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم فهدى الله به الخلائق ، وأوضح به الطريق ، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وبصّر به من العمى ، وأرشد به من الغي ، وجعله قسيم الجنة والنار ، وفرق ما بين الأبرار والفجار ، وجعل الهدى والفلاح في اتباعه وموافقته ، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته » (١)

« وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلّقة بهدي النبي ﷺ ؛ فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه ، والناس في هذا بين مستقل ، ومستكثر ، ومحروم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » (٢) .

(١) فتاوى شيخ الإسلام بن تيمية - رحمه الله - (١٩/٩٣-١٠٣) ، باختصار .

(٢) راد المعاد للعلامة ابن القيم - رحمه الله - (١/٧٠) .